المحاضرة الحادية عشر

قضية الموازنات النقدية :

لقد ظهرت الموازنات النقدية في تاريخ الأدب العربي منذ عصور مبكرة ، وبقيت تسايره إلى اليوم ، فهي وسيلة نقدية تاريخية نجدها في قصة أم جندب وموازنتها بين امرئ القيس وعلقمة في وصف الفرس ، والنابغة الذبياني كان يوازن بين الشعراء في سوق عكاظ ، وعليه فقد كانت الموازنة أساسا للمفاضلة بين الشعراء منذ الجاهلية ، وعند مجيء الإسلام أصبحت الموازنة بين القرآن الكريم وكلام العرب ، وكان العصر الأموي زاخرا بالموازنات بين فحول الشعراء وبين الخطباء والأدباء.

ولما جاء العصر العباسي بدا هذا الفن النقدي نشيطا بين الشعراء ، وما يهمنا هو الموازنات المتصلة بالتدوين التي بدأت بابن سلام الجمحي وموازنته بين الشعراء وجعلهم في طبقات إلى أن وصلت إلى نقاد المغرب العربي والأندلس فيما بعد.

أولا-الموازنة بين الشعراء لابن سلام الجمحي (ت 232هـ) في كتابه طبقات فحول الشعراء :

بسط ابن سلام في كتابه طبقات فحول الشعراء جملة من الأحكام النقدية التي تقوم على الموازنة ، ومن هذه الآراء ما جاء في قوله: " لما بلغ الأخطل تهاجي جرير والفرزدق قال لابنه مالك: انحدر إلى العراق حتى تسمع منهما وتأتيني بخبرهما ، فلقيهما ثم استمع فأتى أباه قال: جرير يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر فقال الأخطل: فجرير أشعرهما". ثم قال:

إني قضيت قضاء غير ذي جنف لَما سمعت وجاءني الخبر

إن الفرزدق قد شالت نعامته وعضه حية من قومه ذكر

و استطرد في الحديث عن هؤلا الشعراء فقال : " وسألت بشارا العقيلي عن الثلاثة ، فقال: لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه ، فقلت: فجرير والفرزدق؟ قال: كانت لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق وفضل جريرا عليه". ويقدم ابن سلام شاهدا آخر فيقول " عن عكرمة بن جرير حين سأل أباه عن الشعراء فقال: الأخطل يجيد نعت الملوك ويصيب صفة الخمر" .

من خلال موازنات ابن سلام في كتابه الطبقات ، نخلص أنه بنى هذه الموازنات على مقاييس منها ، ووفق هذه المقاييس جاء جودة الشعر وكثرته تصنيفه للشعراء في طبقات.

ومن النماذج السابقة نلحظ البدايات الأولى للموازنة ، فهي مقارنة سريعة بين بيت لهذا وبيت لذاك، " وربما ظلت الموازنة رأيا خاصا لشاعر في شاعر ، وأن كان هذا الرأي لا يخلو في بعض الأحيان من تفهم لأداء شعري من حيث مقارنته بأداء سواه " .

ثانيا–الموازنة بين الشعراء للآمدي (ت 371هـ) في كتابه الموازنة بين الطائيين :

لقد استخدم الآمدي ومن بعده القاضي الجرجاني وسيلتين نقديتين متطورتين لم تكونا معروفتين بشكل منهجي ، وهي الموازنة والتحليل ،وقد فاضل الآمدي بين" البحتري وأبي تمام لغزارة شعريهما وكثرة جيدهما وبدائعهما ، وذكر لكل خواصه مع ميل للبحتري وإن حاول إخفاءه وادعى البراءة منه " .

وتقوم منهجية الآمدي في الموازنة على تناول شعر الشاعرين فيما أحسنوا وأجادوا، وفيما أساؤوا وقصروا ، ويشرح الآمدي خطوات منهجه قائلا : " وأنا ابتدئ بذكر مساوئ هذين الشاعرين لأختم محاسنهما وأذكر طرفا من سرقات أبي تمام وإحالاته وغلطه وساقط شعره، ومساوئ البحتري في أخذ بعض معانيه ، ثم أوازن من شعريهما بين قصيدة وقصيدة إذا اتفقت في الوزن والقافية ، وإعراب القافية ، ثم بين معنى ومعنى ، فإن محاسنهما تظهر في تضاعيف ذلك وتتكشف" .

والموازنة في رأي الآمدي تتم كما يلي:

1- أخذ معنيين في موضعين متشابهين.

2- تبيان الجيد والرديء مع إيراد العلة.

3- تبيان الجيد والرديء دون إيراد علة ،لأن بعض الجودة والرداءة لا يعلل .

4-إصدار الحكم بأن هذا أشعر من ذاك في هذا المعنى دون إطلاق الحكم النهائي العام .
كما قسم الشعر إلى موضوعات كالوقوف على الديار والغزل والمدح والوصف والفخر وغيرها، وهكذا يثبت الأمدي بالأدلة والقرائن أيهما أشعر دون إطلاق حكم نهائي ،إلا أنه يظهر ميله إلى البحتري وهذا ما عابه عليه النقاد.

وقد عمد إلى تقسيم الشعر تقسيما يعتمد على الموضوع ،كالشعر الذي تناول موضوع الوقوف على الأطلال والديار، والشعر الذي موضوعه الغزل والنسيب ، وشعر مضمونه المديح ، و آخراختص بالوصف وآخر بالفخر ... وهكذا.

ثالثا-الموازنة بين الشعراء للقاضي الجرجاني (ت392هـ) في كتابه الوساطة :

تبدو قضية الموازنة في كتاب الوساطة واضحة عند مقارنة الجرجاني بين صورة فنية وأخرى، عند شاعرين ، أو بين معنى ومعنى ، فتراه يقابل بين بيت لامرئ القيس وبيت آخر لعدي بن بن الرقاع ، وجاء في قوله:"... وقد علمت أن الشعراء قد تداولوا ذكر عيون الجآذر ونواظر الغزلان حتى إنك لا تكاد تجد قصيدة ذات نسيب تخلو منه إلا في النادر الفذ" ، ثم يأتي ببيت امرئ القيس:

تصد وتبدي عن أسيل وتتَّقى بناظرة من وحش وجرة مطفل

ثم يعرض بيتا آخر لعدي بن الرقاع :

وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم

وفي تعليق الجرجاني على هذين البيتين بين أنهما من الشعر الجيد ، لأن قلوب السامعين تتعلق بهما بالرغم من أن المعنى يكاد يكون واحدا ، والألفاظ خالية من الصنعة ، وبعيدة عن البديع ، فتداول ذكر عيون الجآذر ونواظر الغزلان شائع بين الشعراء ، ولكن الموازنة تقع فيها يتجاوز هذا التكرار إلى البناء الفني نفسه .

وأما باقي الموازنات يمكن أن نطلق عليها مقايسات ، فالجرجاني يحاول أن ينصف المتنبي فلا يناقش ما أخطأ فيه ، بل يقيسه بأشباهه ونظائره عند الشعراء المتقدمين ، وعنده وأنهم لم يسلموا هم من الخطأ .

رابعا- الموازنة بين الشعراء لابن رشيق(ت456هـ) في كتابهالعمدة :

ألم ابن رشيق في كتابه العمدة بآراء سابقيه مما يتصل بالموازنة ، فجعل بابا في القدماء والمحدثين وقال:" وكان عمرو بن العلاء يقول: لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن أمر صبياننا بروايته ، يعني بذلك شعر جرير والفرزدق ، وجعله مولدا بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين وكان لا يعد الشعر إلا للمتقدمين".

ثم أورد كلاما في تفضيل امرئ القيس على سائر الشعراء ومن ذلك قوله:" وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للعباس بن عند المطلب وقد سأله عن الشعراء: امرؤ القيس سابقهم، خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عور أصح بصر".

ثم روى رأي عمر بن الخطاب رضي الله عنه النقدي في شعر زهير بن أبي سلمى ، وذلك في الحديث الذي رواه ابن عباس أنه قال:" قال لي عمر أنشدني لأشعر شعرائكم ، قلت: ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ : قال زهير ، قلت: ولم كان كذلك ؟ قال: كان لا يعاظل بين الكلام ،و لا يتتبع حوشيه ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه ".

وبعد ذلك يقسم ابن رشيق على سبيل الموازنة الشعراء إلى طبقات زمانية وفنية ، والى مطبوعين ومتكلفين وإلى أنصار اللفظ وأنصار المعنى ، ثم يوازن بين الشعراء في البديهة والإرتجال، ثم يوازن بين المتنبي وأبي تمام وما إلى ذلك.

خامسا- الموازنة بين الشعراء لحازم القرطاجني (ت 684 هـ) في كتابه منهاج البلغاء:

إن الملاحظة البارزة في موازنة حازم أنها كانت أقرب للواقع في معرفته طريقة الموازنة أكثر من غيره من النقاد القدامى الذين سبقوه ، ويتضح ذلك في كلامه عن مبدإ هام من مبادئ المفاضلة وهو النسبية في الأحكام ، فحسبه لا يمكن تحقيق المفاضلة تماما وإنما على سبيل التقريب وترجيح الضنون ، والشعر يختلف باختالف أنماطه وطرقه ، ويختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، ويختلف باختلاف الأشياء فيما يليق بها من الأوصاف والمعاني ، ويختلف بحسب ما تختص به كل أمة من اللغة المتعارفة عندها الجارية على ألسنتها..

وقد فصل حازم القرطاجني في تباين أنماط الشعر و طرقه ، فبين أن من الشعراء من يحسن في نمط القول الذي يقصد فيه الجزالة والمتانة ، غير أنه لا يحسن في النمط الذي يقصد فيه اللطافة والرقة ، و آخر يحسن في النمط الذي يقصد فيه اللطافة والرقة ، و لا يحسن في النمط الذي يقصد الجزالة والمتانة ، ونجد بعض الشعراء يحسن في طريقة من الشعر كالنسيب مثلا ولا يحسن في طريقة أخرى كالهجاء ، والعكس صحيح، كذلك نجد أهل زمان يحسنون وصف القيان والخمور ، وأهل زمان آخر يعنون بوصف الحروب والغارات.... وهكذا ، والشعر يختلف كذلك باختالف الأمكنة مما يلهم بعض الشعراء أن يصفوا الوحش (البادية) ، وآخرون يصفون الخمر (الحاضرة) .

لذلك فإن المفاضلة أمر نسبي غير قطعي ، ويكون الحكم فيه على سبيل التقريب.

ويضرب حازم مثلا بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه حين اختصم الناس عنده في أشعر الناس. فقال: " كل شعرائكم محسن ، ولو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة ومذهب

واحد في القول لعلمنا أيهم أسبق إلى ذلك ، وكلهم قد أصاب الذي أراد وأحسن ، فإن يكن أحد فضلهم فالذي لم يقل رغبة ولا رهبة امرؤ القيس بن حجر ، فإنه كان أصحهم بادرة وأجودهم نادرة".

من هذا المثال نرى أن عليا رضي الله عنه ، قد أرسى قواعد المفاضلة بين الشعراء ، والتي تتمثل في وحدة الزمان والمكان والغاية ، فإن أقيمت المفاضلة بين شعراء ، اختلفت أزمانهم و غاياتهم ، وتباينت مذاهبهم ، فإن هذا يحول دون تحقق الموزانة الحقة ، وهذا ما يقر به حازم القرطاجني أيضا.